فى ليـــلة مقرورة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« انفخى النار أو أذكيها فانى بردان ، ولست أجد حرّها »

وكان الوقت شتاء ، والبرد قارساً ، والرياح متداركة المهبوب تقشر الحصى عن وجه الأرض ، وتهيج بالغبـار نحو السماء كالعمود . ولـكن الغرفة كانت دافئة ، والنار فى مواقدها تتسعر ، فعجبت الزوجة ، ونظرت من زوجها إلى الموقد ، وقالت : « بردان ؟ بردان والغرفة كجهنم ؟ لقد ألقيت عليها منذ دقائق خشباً كثيراً لايزال يفرقع من شدة التلهّب ، فـكيف لا تحسها ولا تسمعها ؟ مالك ؟ أبك شيء ؟ »

فهز الرجل رأسه هزة خفيفـــة ، وقال وهو يمد يده : « لا ..، !! خذى أشعلى لى هذه »

وناولها سيجارة كان يقلبها بين أصابعه ، فوضعت طرفها على النار ونفخت فيه حتى صار كالجمرة المتلظية ، ووضعتها بين أصابعه وهى تقول : « سأعود اليك قبل أن تفرغ منها »

وخرجت وردت الباب وراءها ، فتنهّد الرجل وأطرق . وفرغت السيجارة ، وشعر بحرّها على أصابعه ، فأراد أن يطفئها أو يرمى بها ، فمد يده الفارغة يتحسس حتى لمست أصابعه حرف منضدة صغيرة ، فأجرى راحته عليها ، حتى التقت أنامله المرتعشة بشيء فرفعها اليه يريد أن يتبينه ، فانقلب وتحطم ، فرد يده بسرعة ، وقد تجهم وجهه ؛ ثم تنهد ، ورفع قدمه وانحنى على الأرض ، ووضع السيجارة تحت حذائه

وكان الذى يراه وهو جالس على الـكرسى ، ورأسه مثنىٌ على صدره ، خليقاً أن يتوهمه نائماً من فرط السكون . ولـكنه لم يكن نائماً ولا ذاهلا ؛ وإنما كان مُرهفاً أذنه لحركة الاقدام فى غرفة ابنته ، ولما عسى أن يتأدى اليه من الأصوات غير ذلك على الرغم من الباب الموصد عليه . وكانت زوجته لا تزال تعود اليه كل بضع دقائق لتطمئن عليه على زعمها ، فقد أقلقها عليه قوله إنه بردان فى هذه الغرفة التى يُشتكى حرُّها ؛ ولا يُعقل أن يشتكى بردها فكان يبتسم ويقول لها : « لا تخافى على فانى بخير ، ولـكن طمئنينى على فردوس ، كيف هى الآن ؟ ألا أصعد معك اليها ؟ »

وكان يعلم أنها أبت ذلك عليه من قبل مرات ، فهو على يأس كبير ، ولم تكن لحاجته فى الطلب كلما دخلت عليه إلا ليرى كيف يكون جوابها فى كل مرة ؛ وكان يؤكد أنه سيدخل على أطراف أصابعه ، ثم لا يتكلم ولا يتحرك ولا يمد يده ليلمس الفتاة ، فضاق صدرها بهذا الالحاح ، وقالت له : « إذن لماذا تريد أن تصعد اليها ؟ ؟ أكل مرادك أن تزعجها والسلام ؟ »

وأسفت لأنها احتدت فانقلبت تعتذر اليه بما تكابده من العناء ، وتوزع القلب والجهد بينه وبين ابنتهما ، فقبل اعتذارها ، أو لعل الأصح أنه لم يجعل باله إلى ما بدر منها . وما ظنت أنه ساءه من حدة اللهجة وقال :

« لا تشغلى نفسك بى ، واذا احتجت إلى شيء فان فى وسع الخادمة أن تقضيه لى . أليست الممرضة مع فردوس ؟ إذن دعى لى الخادمة فهى حسبى إلى أوان النوم »

فأبت عليه حتى الخادمة ، وقالت : إن فردوس لا تستغنى عنها ، وأن فى وسعه أن يصفق إذا أراد شيئاً فتجيء هى — زوجته — اليه . فترك الالحاح ، وعاد إلى جلسته وإطراقه وسهومه وكفّ حتى عن أن يرفع رأسه — على عادته — حين تدخل زوجته عليه ، كأنما لم تعد به حاجة إلى سؤال ، أو كأنما لم يعد يعنيه من الأمر كله شيء ، وكانت زوجته تقف خياله هنيهة ، ثم لا تأنس منه استعدادا لـكلام ، أو تتوهمه أغفى فتتسلل راجعة من حيث جاءت . وكأنما اطمأنت أو خشيت أن تزعجه أو توقظه ، فصارت تترك الباب مواربا ، ولا تكلف نفسها عناء إيصاده — كما كانت تفعل — من قبل اتقاء لما يحدثه ذلك من الصوت

ومضت ساعة وبعض ساعة ، والدنيا أتم ما يكون سكوناً ، لو لا الرياح العواصف ؛ وإذا بالباب يدق دقاً مزعجا ، وإذا بالخادمة تنحدر على السلم ، كأنما هى فى سباق ، أو كأنما وراءها الذى تهرب منه وتمضى إلى الباب فتفتحه ثم تغلقه ، وإذا بالبيت يملأه بكاء وليد يصيح : « واء واء واء » ولا تمضى دقائق حتى يكون كل من فى البيت قد أحاط به ما خلا فردوس المريضة التى لا تستطيع أن تبرح سريرها أو تنهض عنه ، ويدخل هذا الجم الحافل — سيدة

البيت والممرضة والخادمة ورجل غريب يحمل بين يديه طفلاً ملفوفاً فى أشياء كثيرة وعلى وجهه شف أرجوانى رقيق جدا ـ

وتتقدم الزوجة من بعلها وتقول : « ماذا تظن ؟ لقد وجد هذا الرجل طفلاً ملقى على مقربة من عتبة البيت ! مسكين إنه وليد ! ابن ساعة أو ساعتين على الأكثر ! ماذا ينبغى يا ترى أن نصنع به ؟ لا نستطيع أن نرده إلى حيث كان ... ولا أحسبنا نستطيع أن نستبقيه ... كلا ! هذا أيضاً عسير علينا . ما رأيك ؟ أشر كيف نصنع ؟ »

فيرفع وجهه إلى الناحية التى يجىء منها صوتها ويقول : « المهم الآن إرضاع الطفل ـ والوقت بعد ذلك فيه متسع للتفكير فى مصيره ، فانظرى من ترضعه ، إبعثى فى طلب واحدة ... إصنعى شيئاً ... لا تقفى هكذا »

ولم يكن ثم ما يدعوه أن ينهرها على هذا الوجه ، فما كانت قصّرت أو تلكأت ، ولا كان مضى على دخولها عليه بالطفل إلا مسافة ما ألقت عليه خبر العثور عليه ، ولكنه كان ضيق الصدر بما أجن لا بما حدث من التباطؤ ، وكان يثقل عليه وجود الرجل ولا يرتاح الى الحديث على مسمع منه فى أمر هذا الوليد . ورأت زوجته منه هذا النفور ، وأحست له سبباً باطناً غير ظاهره . فقالت صحيح . أين نجد مرضعة يا فاطمة ؟ (الخادمة) أتعرفين واحدة قريبة من هنا أو جارة نستعين بها الليلة حتى نهتدى الى مرضعة صالحة ؟ (ونظرت الى زوجها الذى لا يراها وقالت بسرعة كالمستدركة) أو نرى لنا فى الطفل رأيا آخر

فقال الرجل بلهجة السأمان « أرضعيه أولا . . اذهبى ، فما ندرى كم ساعة له وهو ملقى ، وإن كان الذى يبدو لى من سكوته أنه لا يشكو شيئاً وأنه على الأرجح — كما قلت أنت — حديث عهد بالولادة .. على كل حال يحسن أن تعنى به الليلة كعناية الأم »

فانصرفوا عنه ، ومضت الليلة بسلام ، وجاءوا فى الصباح بمرضعة للطفل ، فقد أصر الرجل على اتخاذه وتبنّيه ، وكانت زوجته حين رأت منه هذا الاصرار قد راحت تنكر عليه هذا العزم ، وتخوّفه ما لابد أن يعانى من جرّاء وجوده فى البيت ، وتنذره الضجات والضوضاء وغير ذلك ، فان الأطفال فى سن الرضاع لا يوقّرون كبيراً ، ولا يعنون براحة أحد ، ولا يبالون ما يكون منهم ، ولكن هذا لم يثنه عما صحّ عليه عزمه

ومضى عام ثم آخر ، وحبا الطفل ومشى ، ولم يفتر حنوّ الرجل عليه ، بل صار هو سلوته ، فكان يخرج به كل يوم ساعة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولم يكن يبعد عن البيت لأنه مكفوف ، فكان يتمشى فى الحديقة الواسعة والطفل أمامه فى مركبته الصغيرة ، فاذا غادر البيت اكتفى بالطواف حول السور ، وكان كلما التقى بفردوس والطفل معه ، يتركه لها وينصرف عنها ، ولا يبقى معهما فى مكان ، وكان ذلك يسر فردوس فى أول الأمر لأنه يسمح لها بأن ترسل نفسها على سجيتها مع الغلام ، ولكنه لما تكرر من أبيها ، أزعجتها منه دلالة العمد فيه ، ولكن ماذا تقول أو تفعل

وكانت زوجته كثيرا ما تشير فى حديثها معه الى فردوس وأنه لا يبدو لها خاطب بين الأقرباء والأصدقاء العديدين ، فلا يقول الرجل شيئا ، ولكنها أضجرته مرة فقال لها « دعيها ، ولا تقلقى عليها ، فانى أحسب الطفل سلوة كافية لها » فسألته زوجته بلهفة « ماذا تعنى ؟ كيف يمكن ؟ »

فابتسم الرجل وقال « أعنى أن فى وسعها أن تفيض عليه من أمومتها الكامنة ؛ وكفى بهذا الطفل عزاء وسلوة مادام لا بعل لها »

وطال الأمر ، وشق على الزوجة أن الحبائل الكثيرة التى ألقتها لم تقنص أحداً ، ونفد صبرها وعجزت عن الكتمان فقالت بشجونها لزوجها ، وكان هو أيضا قد مل هذه الأحاديث التى لا تنتهى فسألها « هل يسمعنا أحد . . انهضى وانظرى ».

ففعلت وعادت فطمأنته فقال « إذن اسمعى — لقد كنت أوثر أن أظل ساكتاً لا أتكلم ، ولكنك اكرهتنى على الكلام . وانى لضرير ولكن رأسى لم يعطّله شىء ، فهل تذكرين كيف سافرت ابنتنا وقضت شهورا عند خالها فى ضيعته ؟ إنى ما زلت أذكر ذلك لأنى أعلم أنها لم تكن عنده ولا عند أحد غيره من أقرباء أبيها أو أمها ، وإن كنت أجهل أين أقامت كل هذا الزمن . . انتظرى . فلست ألومك ، بل أنا على العكس أثنى على حكمتك ، وحسناً صنعتِ ، وقد عادت بعد ذلك فجأة وأوت الى فراشها ساعة وصولها ، وظلت مريضة حتى كانت الليلة التى دق علينا فيها الباب ، وجاءنا الرجل بهذا الطفل . ومن حسن الحظ أن